حريق ابن رشد

قصة بقلم فاروق خورشيد

كان حر الظهيرة يذيب كل شيء حوله ، واخذت طبقة (الأسفلت) التي كست الطريق تحت قدميه تئن تحت ثقل الشمس الملتهبة ، وتخرج هذه الانات لفحات نارية تحرق قدميه رغم الحذاء السميك الذي يلبسه ...

وكان يسير وحيداً ، وحيداً كاعنف ما تكون الوحدة ، لايحوطه الا ذلك اللهيب المرعب ، لهيب القاهرة في الساعة الواحدة ... وكان شارع المدارس على اكتظاظه بهذا الحشد الضخم من البدل الانيقة والفساتين الزاهية يوحي بالفراغ والوحدة ..

ورفع رأسه الثقيل من اطراقته الدائمة وامتدت يده تعبث بشاربه المدلى في همود . وكان في عينيه بريق الحذر ، واكتسحت عيناه الشارع في نظرة خاطفة ، لقد رآه مرة ثالثة وهو لا شك يتعقبه ، واسرع في خطواته وأحس بالآخر يلاحقه ، واشتد وجيب قلبه وارتفع صوت خفقاته حتى ليسمعها مع وقع قدميه على الطريق ، وعاد يتلفت وراءه من جديد ، وابتدأت حبات العرق تنعقد فوق جبينه الملتهب وأحس بتقلص في شفتيه ..

وحاول ان ينفي ذلك الخاطر الخبيث عن ذهنه ولكنه اخفق ، وعاد يسمع وقع خطوات ذلك الذي يتبعه ، وكان يستطيع ان يميز صوت قدميه من كل ضجة الطريق فهو يعظل بقدمه اليسرى ، او لعلها اليمنى .. على اي حال هو يعظل باحدى قدميه ، ولا شك انه يستطيع تمييز صوتها من صوت اقدام الناس اجمعين .. وكيف لا وهو يسمعه كل يوم فما يكاد يغادر منزله في الصباح حتى يتبعه وكأنه قضى ليلة يراقب نور حجرته ، ولا بد انه يفعل .. وما يكاد يترك مدرجات الكلية حتى يحس به وراءه ، بل انه يسمع وقع قدميه في انحاء الكلية حين يترك مدرجاً ليدخل آخر ..

انه انسان منته ، وهو يحس هذا منذ بدأ البوليس يتعقب خطواته، وهو يعذر البوليس في هذا، فهو ولا شك انسان خطر، خطر تماماً على النـاس جميعاً ، وهم ولا شك يعرفون خطورته ، بل ان (بثينة) تعرف ايضاً انه خطر ، وتعرف ان خطورته وليدة عقله الجبار الذي لا يهدأ ولا يستقر ، ذلك العقل الذي استوعب مائتين واربعين كتاباً ولعلها ثلثمائة فهو لا يذكر تماماً ، وكل هذه الكتب تتحدث عن شيء واحد وهو (السريالية) ، وليس هذا عليه بعجيب، فهو عبقري وهو فوق عبقريته فيلسوف .. وعـاد يسمع الخطوات التي تعظل من جديد ...

ألا خلاص له من هذه الرقابة الدائمة ، في الطريق وفي الكلية.. في النهار وفي الليل ، حتى ليسمع هذه الخطوات في نومه تروح توقع نغماتها الرتيبة مع تنفسه المضطرب فيستيقظ مرعوباً وقد احس انه يختنق ؟..

كلا ، لا خلاص..انه رجل منته،ولا فائدة إلا اذا ترك تفكيره وفلسفته، ولكن ايمكنه حقاً ان يتركها ، كيف بالله ... ونظرياته العظيمة التي سيغير بها من وجه العالم ، وافكاره العبقرية التي ستدفع بـه الى القمة حتى ليعرف كل انسان اسمه وتصبح اراؤه وافكاره في كل كتاب وفوق كل لسان ...

عدنان يقابل رئيس الجمهورية ، عدنان يستقبل الرئيس ترومان ، الهند تكرم عدنان ، عدنان يقابل ريتا هيوارث !

نعم ... وستغار (بثينة) وتعرف حينئذ انه عبقري ، ولكنه سيعاملها كما تعامله هي الآن ، انه سيسير – ولا شك – محفوفاً بمئات ومئات من الفتيات الجميلات بل لعلهم سيعينونه في عامهم هذا استاذاً بالكلية بعد ان يحصل على الليسانس ، فاساتذته يعرفون انه عبقري ويستشيرونه في اشياء كثيرة ويحبون ان يجلس معهم في حجراتهم ويسير هو معهم في ابهاء الكلية ، وحينئذ تكون (بثينة) من بين هؤلاء اللواتي يلتففن حوله سائلات :

– استاذ عدنان ، هل السريالية حقاً صورة من صور الرومانسية ؟

وسيجيب كلا ، ويبدأ في مهاجمة هذه النظرية البلهاء التي تقول ان السريالية رومانسية في اضعف صورها، انه لايكاد يطيق ان يسمع هذا اللغو الفارغ. ان السريالية اعظم مواتب الفن ، ولا ادل على هذا من انه كرس حياته حتى الآن دارساً لها ... ولكن كل ما في الامر ان هذه دسيسة مغرضة دبرها اعداؤه لينالوا منه ... ولكنه سيرد على هذا الكلام الفارغ ويهاجم هؤلاء الجهلة في عنف ...

ويلتقط المصورون صوراً له ويعقبون عليها بالمقالات الرائعة ، وينشرون له الاحاديث مقرونة بصوره ، وستقرأ (بثينة) هذا كله ، وتمتلىء قلبها حقداً كهذا الحقد الذي يملأ قلبه ، وتثور في نفسها ضغينة كتلك التي تثور في نفسه كلما رآها سائرة مع هـذا الفتى الاسمر الذي لايعرف شيئاً في السريالية وليس الاول بامتياز مثله ...

ولكنه سيتنازل ويذهب اليها فتجري اليه وتترامي بين ذراعيه ، وتضع رأسها فوق صدره العريض ثم تبكي ... فيهدهد كتفها في رفق ويقبـل رأسها في عطف ثم يضم جسدهـا اليه في حنان ويسير في تؤدة ورزانة ، وسيكون مرتديا ثوباً جامعياً اسود مزيناً بالشريط الاخضر عند حافتيه وكل هؤلاء الطلبة والطالبات يتطلعون اليه في دهشة واعجاب حاسدين هذه الفتاة التي أضاءت له طريق العبقرية والمجد ، ويزيحهم من طريقه ثم يمضي خطوة خطوة وقد انحنى كتفاه قليلا ويده تعبث باحدى المداليات المعلقة في شريط فوق صدره ، ويسير خطوة ، خطوة ...

ووقف بغتة، فقد سمع قدماً تعظل تسير وراءه خطوة خطوة... ان اشد ما يحيره انه يسمع هذه الخطوات دون ان يعرف صاحبهـا فكلما التفت وراءه وجد وجهاً جديداً يترقبه ويحصي عليه حركاته وسكناته ، وكانت تعابير هـذه الوجوه تختلف فهي حيناً الدهشة وحيناً المعرفة ، وفي اغلب الاحيان تكتسي ثوب الذهول وعدم الاكتراث وأحس بالخوف يتمشى وئيداً الى قلبه فيبعث فيه برودة كبرودة الموت مع ما يحسه بحلقه من جفاف ومـا يستشعره فوق وجهه من حبات متكاثفة من العرق ..

وذكر ذلك اليوم الذي اعلن فيه انه سيلقي محاضرة عن السرياليـة في مدرج (ابن خلدون) وذكر كيف تكاثر عليه الطلبة يسألونه عن موضوع المحاضرة ، كم كان وقوراً في اجابته ، متواضعاً في حديثه ، وعندما ذهب الى المدرج في آخر اليوم الدراسي وجده خالياً الا من ثلاثة كان يعرف انهم لا يهابون بطش البوليس ولا يخشون شيئاً .. اما الباقي فلم يجد منهم احدا..

لا شك ان البوليس قد سبقه فأخرج الطلبة من القاعة ولا بد انهـم قاوموه ليسمعوا عدنان ولكنه طردهم كلهم ولم يبق إلا هؤلاء الثلاثة العتاة..

الأول ذلك الأمرد زير النساء الذي لا يكف عن الحديث عن مغامراته

الناجحة وصولاته الرائعة ، لا واحدة تستطيع ان تقاوم اغراءه ..

والثاني ذلك الاديب البارد الطبع الذي لا يعبأ بشيء ولا يهتم لأمر بل يرقب كل شيء بهدوء وبرود وابتسامته على شفتيه ..

والثالث ذلك الانسان القصير ذو الوجه الاحمر والرأس الابيض الذي قبض عليه البوليس ثلاث مرات وسجنه مرة لأنه متطرف في مذهبه، وهو مع هذا لا يهتم الا بنشر مبادئه التي يؤمن بها ايماناً كاملا .

هؤلاء الثلاثة — وثلاثتهم اصدقاؤه — يعجبون به ويحبونه ويتمنون ان يكونوا مثله ، اما هو فلا يرضى ان يكون شيئاً سوى عدنان .. وكم يطمع الكثيرون في ان يكونوا مثله ..

واحتواه ميدان الجيزة بضجيجه وصليل الترام واصوات الابواق المحذرة وصياح الباعة وشجار الناس . ورفع يده يرد تحية القاها اليه طالب يذكر انه رآه مرة او ربما اكثر ، واحس راحة تملأ نفسه فقد كان الطالب يحييه في احترام شديد وادب بالغ ... وعادت يده تعبث بشاربه الطويل المدلى بجوار فمه وهو يترك الجيزة ويبعد عن ضوضائه رويداً رويداً ...

كان يحس راحة وهدوء .. ليفعل البوليس ما يشاء وليطلق كل رجاله وراءه وليراقبوه في كل شيء فهو لن يهتم لأنه سينتصر وسيأتي ذلك اليوم الذي يستطيع ان يضرب فيه ذلك الجندي الوقح الذي اهانه يوماً منذ عام ..

انه ليذكر هذه الحادثة ولا يكاد يستطيع نسيانها ...

كان يسير ذات مساء على حافة النيل ، ذلك الطريق المظلم الذي يبدأ من نهاية كبرى قصر النيل ويتسلل خلف حديقة الاندلس ثم ينساب ضيقا مظلماً مملوء بالاشجار العالية ، واستهواه منظر القمر في السماء الصافية يتسلل من بين الفروع المتباعدة عند قمم الاشجار وصوت الموسيقى الحالمة ينبعث من الحديقة الى جواره .. وظل يتقدم في الطريق الى ان وجد صخرة على حافته .. وجلس ، تلك الجلسة التي يحبها دائماً ، وحيداً الا من القمر والماء وتأملاته ، جلسة الشعراء والفلاسفة .. وعلى حين فجأة سمع صوتاً اجش يحطم السكون حوله :

— يا افندي ، ماذا تفعل هنا ؟

ما كان لأحد ان يقطع خلوة فيلسوف او شاعر وإلا ثار وحطم الدنيا ، ونظر وراءه فرأى شبحاً قريباً يبين في الظلام هيكله الضخم وفي يده عصا ضخمة ... ولم يرد وانما عاد الى تأملاته من جديد ..وعاد الصوت الاجش يصيح من جديد :

— يا افندي ، الا تسمعني ... قم من هنا .

وانعقدت حبات العرق على جبينه برغم الهواء الندي الذي كان يلمس وجناته ، وتحول اليه ليقول في صوت هامس :

— لم ... ؟

وازداد الصوت خشونة وقحة وبدت فيه نبرة هازئة :

— يا افندي ممنوع ... ممنوع ... افهم .

وازدرد ريقه وقد شعر بجفاف في حلقه ومرارة تملأ نفسه :

— ممنوع ! لم ؟

وكان صوته غريباً عنه ، كان متخاذلا ضعيفاً واهنا .

— نقول ممنوع وهذا يعني ممنوع ... انا الغفير ...

واحس في كلماته الاخيرة رنة الفخر والزهو ... وملأه شعور بالسخط ، خفير ، يا للمهزلة ، خفير يكلمه بهذه اللهجة المتعالية الوقحة ولا يتورع ان يقول بملء فيه ... انا الغفير ...! الظاهر انه لا يعلم حقيقة شخصيته ! وقام من مكانه متثاقلا ، وتحول الى الخفير يفهمه من يكون ...

وغلت شفتيه ابتسامة مرة، وكان دائماً يستشعر نوعاً من المرارة والهوان كلما تذكر هذه الحادثة ، لقد كان غبياً لاشك حينما حاول ان يجادل هذا الخفير الابله ، انه لاشيء فكيف جادله بالله ... ولكنه يذكر جيداً كيف ظل هذا الحيوان يدفعه في عنف ، وفمه لا ينفك يرسل سبابا عنيفا وقحا ما سمعه في حياته من قبل ...

ووقف عدنان فجأة وعبرت الطريق سيارة مسرعة وعاد يخترق الشارع ثم انفرج قليلا ليسير في الطريق الساكن الهادىء الا من صياح الصبية الصغار وصليل الترامات يأتي متثاقلا من بعيد ... وامتلأت رئتاه بذلك العبير الحبيب المميز الذي ينبعث من بعض الحدائق المهملة للمنازل الصغيرة الى يساره مختلطة برائحة الحقل الاليفة الى يمينه وانبعث في نفسه احساس مبهم لايكاد يدركه ، احساس بالمرارة التي تسيطر على كيانه وتتغلغل حتى اعماق نفسه فتمتزج مع هذه الرائحة التي تملأ رئتيه وتجعل الدنيا امامه سجنا كبيراً ... وهل هو إلا سجين !

انه لا يكاد يلقي حوله انساناً واحدا يفهم عنه ما يقول او يسمع واعياً ما يتفوه به ..

انه ليحنق على نفسه وعلى العالم ان يضطر الى تضييع هذا الزمن الطويل من عمره مخاطباً هؤلاء البلهاء الذين يزاملونه في المدرج بالكلية او متحدثاً الى هوام البشر الذين قذفت صروف الدهر بهم الى طريقه ..

وامتلأ صدره بضيق مبهم المصدر حينما تذكر انه سيلقي بعد قليل (مدام استر) صاحبة المنزل الذي يقيم فيه تحوطه بعنايتها وكأنه طفل مدلل وتلقي اليه ببسماتها الصاخبة .. تلك البسمات التي تنطق بالأنوثة وتتضوع بعبير المرأة الثائرة ...

وهو يذكر جيداً ذلك المساء الذي جلس فيه يتأمل ضوء القمر من شرفة حجرته ، تلك الشرفة الضيقة الحبيسة مثله تماماً ، وكان يفكر في (بثينه) ويذكر توائبها الحبيب فوق الصخور الصغيرة هناك اسفل الهرم الاكبر ، وقد انبعث ثمة لحن راقص من (جراموفون) اتى به احد الطلبة بينما انتشر باقي الموكب هنا وهناك ، وجلس هو وحيداً يرقب حركاتها الرقيقة وعبثها البريء وهي لا تكاد تعرف انه يراها ويرقبها ..

واختفت (بثينة) من امامه واختفى الهرم وانقطع اللحن الراقص وما عاد يرى الا الشعاع الباهت يتسلل خجلا الى شرفته البائسة عندما سمع وقع اقدام تقترب من حجرته واحس بأنسان يلج الحجرة ، وكان يعرف سلفاً انها هي ، فلم يتحرك ، فقد دأبت منذ ليال على الحضور اليه عندما تغلق الباب خلف آخر من يدخل من سكان بيتها الصغير .. وكان يحس دائماً ضيقاً يمتلك نفسه عندما تدخل حجرته .. ولكنه يعرف انه كان يسر في دخيلة نفسه حين يسمع وقع خطواتها اللعينة فوق ارض حجرته ، كان ينبعث في قلبه احساس عجيب بنشوة غامرة تطوف بصدره ..

وعندما احس بانفاسها تلتهب هناك عند اذنه التفت اليها، ولهث ، فقد كانت لاصقة به تماماً ، وكان جسدها كله يرتجف ، فضمها اليه دون ان يعي وألصق شفتيه الباردتين بشفتيها ، وأحس بشفتي المرأة تحرقان وجهه كله فتخلص منها واسرع يجري الى حجرة صديقه «ضياء» يطرق الباب وكأن الجن تتعقبه..

ولم ينم ليلته تلك فقد ظلت صورة (بثينة) تبدو له عاتبة لائمة تنظر في ألم الى شفتيه .. كما ظل وجهه كله يلتهب ويحترق .. وفي الصباح ظل يلقي بالماء فوق وجهه الى ان كلت يداه ..

ومنذ تلك الليلة المشؤومة لم ينم .. كانت الحروف تتراقص امام عينيه حين يقرأ، تذوب وتحترق وكأنما قبلتها مدام استر الارملة الثائرة ... فيخجل

ويندى جبينه بالعرق السخين ، وسرعان ما يختلط به دمع بارد ينساب رغم ارادته متخللا اخاديد وجهه الشاحب عندما يذكر (بثينه) ..

وانقطع وقع قدميه على الطريق ، وولج باب المنزل فأحس ان الاقدام التي تعظل قد كفت هي الاخرى عن الحركة ، وعندما التفت وراءه رأى رجلا هناك ، يقف عند حافة الطريق يشعل سيجارته وكانت حركاته المريبة تنطق بمهنته ...

وهناك في الحقل المقابل وقف ذلك الرجل المتنكر في ثوب الفلاح يعتمد بجسده على فأسه يرقب حركاته ، وبائع الخيـــار الذي توقف عند الشجرة الكبيرة وقد رفع قدمه يريحها فوق ذراع العربة الصغيرة . انه يتطاع اليه ثم يلتفت ناحية ويطلق عقيرته مناديا على سلعته ..

انه يعرف تماماً انهم يضيقون عليه الخناق ..

وهذا الرجل ذو الشارب الكث المقبل من اول الطريق : انه يتوقف وكانه يبحث عن شيء ويختلس النظر الى ناحية ..

ما عاد يحتمل هذا كله : واحس بوطأة هذه المراقبة التي لا نهاية لها فوق انفاسه .. انه يختنق في هذه المدينة الكبيرة ، القاهرة الصاخبة ، سجنـــه الكبير الذي لا فكاك منه ..

وانطلق يعبر الحديقة الصغيرة المهمـــلة وصوت (ركس) كلب مدام استر ينبعث ملحاً من خلف الباب المغلق هناك في نهاية الحديقـــة ، ومضى متثاقلا وكأن بحذائه الضخم اثقالاً من حديد ..

وامتدت يده الى الباب يطرقه في استرخاء ، وكان عجيباً ان يحس يده ثقيلة حتى ليرفعها في صعوبة وعسر : وجابه عند الباب وجها باسما ، واشاح بوجهه دون ان يلقي بتحيته التقليدية لمدام استر ، واخذت قطرات العرق تنعقد فوق جبينه . كان يشعر بالذلة يصحبها مزيج من الضيق والضجر ،وكان هذا الاحساس يملأ نفسه كلما رأى مدام استر بعد حادثة الليلة العتيدة .. ما كان يستطيع ان ينسى انه حينما يختلي الى نفسه تتواثب امـــام عينيه صورة ساقيها العاجيتين وهي ترفع عنها الثوب الرقيق وقد وضعت احداهمـــا على الاخرى .. وما كان ليستطيع ان يتجاهل هذه الرغبة الخبيثة التي جالت في نفسه حينما ضمها الى صدره في قبلته اليتيمة لها .. كان دائماً يستشعر لهيب شفتيها القائظتين فوق شفتيه الباردتين تحرقان في كيانه علمه وفلسفته ، وتذيبان في داخله معاني الطهر والعفة .. وتثور (بثينة) ..

ولكنه كان يحس دائماً ضعفاً أليما كلما رآها امامه تجابه عيناها الجريئتان وجهه المضطرم الحائر ،كان يشعر بالخجل يتمشى في عروقه وينتزع ثقتـــه في نفسه واعتزازه برجولته ..

وولج الحجرة في سكون ومرارة لتتواثب امام عينيه هذه الكتب المنتشرة في كل مكان ، فوق المكتب وعلى الارض، وهناك فوق هذه الرفوف المثقلة، واغلق الباب خلفه في سكون ..

كان ذلك الضيق الذي يمـــلأ نفسه يخنق في انفاسه انتظامها ورتابتها، وكانت صورة (بثينة) الشاحبة تملأ خياله الكليل ، وأحس ان برأسه عرقاً ينبض بقوة ، وامتدت اصابعه الطويلة المعروقة تضغط ، تضغط هنـــاك أعلى اذنه اليمنى !..

ووثب فجأة لهيب اندلع بين قدميه ، واستشعر خوفاً جارفاً يستحوذ على قلبه ، كانت هناك حشرة ضئيلة تسعى بين قدميه ، صرصار من تلك الصراصير التي تملأ منزل مدام استر ، وظل يرقبه ذاهلا الى ان توارى اسفل الباب ..

انه يخاف هذا الصرصار ، يخشى فيه هذه القوة المجهولة التي تسيره ، لقد قرأ شيئا كهذا في كتاب من الكتب التي تتحدث عن النفس الانسانية وتملأ الرفوف في حجرته البائسة ..

ان هذه السلبية التي تأخذ عليه حياته يجب ان يضع لها حداً ، وليبدأ بهذا الخوف الجبان يزيحه عن كاهله ، ان علاجه في واحد من هذه الكتب .

واسرع يبحث عن الكتب هنا وهنا .. انه لا يذكر عنوانه تماماً ولكنه يذكر لون غلافه . واشتدت حركة يديه وهو يبعثر الكتب ويخرجهـــا من اماكنها ، واشتد وجيب قلبه وابتدأت حبات العرق تحمل لعينيه لذعاً مؤلما ، وأحس ان ذلك العرق الذي ينبض في رأسه قد زادت حركته ، وما زالت الكتب تتناثر حوله من فوق الرفوف ومن على المكتب ومن كل مكان .. وأخذ يلهث في عنف وملأت مرارة جارفة قلبه كله ..

لماذا بالله كل هذا العناء ؟ ماذا افاد ؟ لا الناس عرفوه ، ولا بثينه تبادله نظراته الملتهبة ببسمة حانية ، ولا مدام استر كفت عن نظرتهـــا الساخرة المشفقة التي توجهها اليه ..

وارتفع صوت بائع الخيار تحت شرفته ، ومضت عربة تحدث دويا مشروخا وذلك الصوت الذي يعظل خطوة خطوة ..

انا الغفير .. وبثينة تسير مع هذا الشاب الاسمر .. وهو ماذا ؟

يقرأ هذه الكتب كلها، واكثر منها.. نعم اكثر منها..اكثر منها..منها..

وهب من وقفته وقد اخذ يجمع كل ما فوق الارض من كتب وفي عينيه لهيب مستعر ..

★

وهرعت مدام استر الى السطح وقد هالها الدخان الذي ملأ جو المنزل وايقظها الصراخ المتعالي في الطريق ..

وكان عدنان يضحك بوحشية ضحكاً ما استمتع بمثله طول عمره ، ويده تحمل الى النار وقودها .. ثمار الاذهان الجبارة ، اذهان الفلاسفة

القاهرة

فاروق خورشيد
من الجمعية الادبية المصرية